المسلمون ومعرفتهم الجوهرية بنظام قيمهم

الشيخ حسين أحمد شحادة[١]

مدخل:

لا تزال فلسفة القيم تشغل بال الفكر الفلسفي بمدارسه القديمة والحديثة، ويحتدم هذا الانشغال مع طغيان البرجماتية (الذرائعية) المتوحّشة، وفي ليل غاباتها نستعيد اليوم سؤال القيم وفلسفتها بنحو عامّ، وصلتها بفلسفة التربية بنحو خاصّ... وفي مجروحات هذا السؤال لا شيء يقلق الحضارة الحديثة في مشهد أزمتها إلا انحطام معايير التمييز بين ما هو نافع وما هو ضار، وبين ما هو راجح وما هو مرجوح من وسائلها وأغراضها.

المعيار القيمي في القرآن:

في الوقت الذي يجري فيه تقويم المعنى الحضاري؛ من خلال ما يترتّب على الجهود الإنسانية من مصالح ونتائج، فإنّ الهداية القرآنية تقيس تسعيرة «**القيم**» في ربط النية بالعمل: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي

(١) أستاذ في الحوزة العلمية، ورئيس منتدى المعارج لحوار الأديان، من لبنان.

﴿لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[1]؛ ذلك أنّ إرادة الخير هي التي تضفي على أعمالنا رونق الصلاح؛ بمعنى أنّ ارتباط خلوص النيّة بصلاح العمل تمنح النشاط الاجتماعي قيمة تخصب وتتنامى في فردوس من القيم.

وما حديث القرآن عن تزكية النفس وسلامة القلب إلا توجيه لدراسة تفاعل القيم في المغارس الطاهرة والمنابت الطيّبة. وبمعزل عن مناهج فلاسفة اللذة والمنفعة في تسعير «القيم»، فإنّ ميزان الربح والخسارة من منظور قرآني يتجاوز مظهر الاتّصال بالزبد..؛ ليذهب عميقاً فيما هو أبعد من زخرف الدنيا وزينتها: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[2].

ومن هنا كان الاستشهاد في سبيل الله؛ أي في سبيل الخير في معناه الحضاري، ذروة القيم؛ لأنّ عيون الشهيد تشقّ طريقها إلى المعنى الخالد من فلسفة الموت والحياة، وفي هذا يغدو الشهيد سيّد القيم، وسيّد الحياة: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[3].

جدلية العلاقة بين القيم والمعرفة:

إنّ ما يحتاج إليه الخطاب الإسلامي في الواقع الراهن والمعاصر؛ لبلورة نظام القيم في صياغة مشروعه، هو البحث عن حلقة هذا التوازن في علاقات القيم الإسلامية بعضها ببعض، وذلك بفتح نوافذ قيم العقيدة على قيم الأخلاق والاجتماع.

(١) النور: ٥٥.
(٢) القصص: ٦٠.
(٣) آل عمران: ١٦٩-١٧١.

وهـا هنا نفتح جدل العلاقة بين مجتمع القيم ومجتمع المعرفة والعلم؛ لرفد أسباب القوّة التي تحمي قيمنا العليا من عوامل التدمير والاستلاب.

فلا يمكن لقيمنا الإسلامية السامية أن تترعرع في محاضن الأمّيّة، أو يكون لها شيء من نصيب الازدهـار في بيئة من الجهل، والعصبية، واستشراء النفاق، حيث تعدّ ظاهرة النفاق الديني من أخطر ما يصيب القيم في بواعثها وأهدافها، ولا قيمة ذاتية للأهداف إلا أن تجيء موصولة بطهر النيّة، وسلاميّة الطويّة، ونقاء السريرة؛ بوصفها همزة الوصل الربانية في بناء الشخصية الربانية على عين الله ورضاه، ولا يتحصّل هذا الإخلاص في النيّة إلا عن طريق المعرفة الحقيقية.

مقياس القيم:

لا يزال سؤال: كيف تقاس القيم؟ هو سؤال التحدّي الذي يواجه الفكر الإسلامي المعاصر وفلاسفته.

وبالرغم من أهمّيّة علم الدين المقارن في تفسير السلوك الديني، ولكن ما نرتجيه من الدراسات الإسلامية الاجتماعية أن تواجه اليوم ما توصّلت إليه الدراسات الحضارية المقارنة، منذ ستينات القرن الماضي، وحتى اللحظة الراهنة.

فما كتبناه عن خصائص الحضارة الإسلامية والشخصية الإسلامية لا يكاد يصلح من الناحية المنهجية إلا في توثيق الجانب النظري من تلك الخصائص، في حين أنّ دراستها الإمبريقية(التجريبية الاجتماعية) تتطلّب العناية بتأسيس المراكز البحثية؛ لتفهم حجم التباين بين القيم الإسلامية وبين كثير من المتغيّرات الطارئة على السلوك الديني والقيمي عند المسلمين.

ارتباط القيم بالرؤية الكونية والصبغة الإلهية:

نخلص من هذه المقارنة الأوّلية إلى أنّ القيم الإسلامية مرتبطة بتفسير الإسلام للكون، وموقع الإنسان منه على هذه الأرض، في نسق ما يصطلح عليه القرآن الكريم بالأمانة والاستخلاف: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[1].

ومن جميل ما يربّى عليه المسلم في عقيدته أن يفتح عينيه على عالم الغيب والشهادة؛ ليدرك في أعماق نفسه قيمة الحياة ومعناها، حيث تشديد القرآن الكريم في ثقافة هذه الحياة على قيمة اتصالها «**بالكرامة**» الموصولة – هي الأخرى – بمحاسن الفكر وفضائل السلوك.

وبذلك يمكن اعتبار مصطلح القرآن عن «**صبغة الله**» بمثابة المحور المضيء لتكوين الشخصية الإسلامية وبنائها بالقيم؛ على وحدة القيم المتوازنة بين قيم الحقّ وقيم الواجب، وصولاً إلى التماس هذه الوحدة في قيم القانون وقيم الأخلاق.

ولعلّنا نفهم من وراء هذا التوازن أنّ ما يسمّى بنظام المصالح في الرؤية القرآنية هو عينه الكاشف عن نظام القيم؛ بملاحظة أنّ القيم الإسلامية في العقيدة والشريعة والأخلاق ليست قيوداً في قفر منقطع عن الدنيا، وإنّما صياغة مهمومة في أن تكون دنيا الأرض أجمل وأكمل..

إثبات الذات الإسلامية:

في هذا المجال فإنّ قضية إثبات الذات الإسلامية في عالم اليوم تعني فيما تعنيه أن يرى المسلم نفسه جزءاً من هذا العالم، ومن حقّه في هذا العالم الرحب والمتعدّد أن يعرض قيم ما يؤمن به بالحكمة والموعظة الحسنة: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾[2]،

(١) البقرة: ٣٠.
(٢) النحل: ١٢٥.

على قاعدة الاعتراف بخصوصية المكان والزمان وفضاءات «**البيئة**» التي يجدر أن يتعايش معها؛ بوصفه شاهداً عليها، ما يعني أنّ قيم الوعي بجوهر العلاقات الإنسانية هي الحاضن الذي تتعلّق به سائر القيم، مع الاحتفاظ بمناعة تمايزها عن الآخر المختلف أو النقيض.

وقد تكشف خبرة هذه القيم؛ من خلال ملابسات العيش المشترك ومشكلاته، عن أنّ النتائج التي تتوصّل إليها الحكمة والموعظة الحسنة داخل مناخات السلم الاجتماعي هي أوفر حظاً وأثراً من تلك التي كابدت إشكال حضورها تحت حراب الاصطراع والفتن.

القيم الإسلامية وموقعها في حوار الأديان:

إنّ التحدّي الأبرز الذي نواجهه في واقعنا الراهن، هو: إذا كانت حلبات الاصطراع الجديد تجري على أرضنا الإسلامية المستباحة؛ باكتساح العولمة ومحاولتها ابتلاع جميع مظاهر القيم في حياة المسلمين، فإنّ هذه الحرب المفتوحة لا تخصّ المسلمين وحدهم، وإزاء هذا التحدّي من تحدّيات الحفاظ على قيم الدين والهوية والثقافة نستنفر حوار الأديان والثقافات؛ لنواجه من خلاله خطر تسفيه قيمنا في معنى الإنسان والحياة.

ومن أجل ذلك كلّه تجيء ثقافة المقاومة في جدل الشهودية والاستشهاد، مرتبطة كأشدّ ما يكون الارتباط بمصير الوجود والقيم، وفي مقدّمتها قيمة إيماننا بالتوحيد...

وقد وصف الإسلام ما قبله بظلمات الجهل، وعصبيات الجاهلية، من دون أن يقطع شيئاً من وشائج الصلات التي تربطه بشرائع السماء، فجاء خاتم الأنبياء محمد ﷺ مصدّقاً لما بين يديه من كتبها: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ

﴿فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۖ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ﴾[1]؛ لتستمر الجذور التاريخية «**للقيم**» في الشجرة الطيبة، والكلمة الطيبة.

ولقد نبذ الإسلام الوثنيات كلّها، وألغى عبادة الأصنام من حياة العرب، ولكنّه احترم قيم الحنيفية في التوحيد والأخلاق، فبارك ما كانوا عليه من تحريم الظلم، والزنا، وشرب الخمر، ووأد البنات؛ باعتبارها قيمة ثابتة من قيم ردع المنكر، ومنابذة السيئات.

فكان عنوان «**التغيير**» في الخطاب الإسلامي؛ لتطهير الفضاء الداخلي للإنسان في دائرة النفس البشرية، وانتصار إرادتها الممتنعة عن كلّ فجور أو غواية أو ضلال.

وأضحى من الطبيعي أن تعالج ظاهرة الانحراف عن تلك القيم؛ بتصويب جدل العلاقة بين الثابت والمتحوّل منها، في إطار تطوّر الفقه الإسلامي، ومواكبته للزمن، وما زالت فلسفة مقاصد الشريعة هي المبنى المعياري؛ لتفهّم ثوابت القيم الإسلامية، في عالم متغيّر، يواكب روح الإسلام في قيمه المعيارية.

وربما لن تجد من دعاة التجديد الإسلامي قديماً وحديثاً من جازف بشعارات تكيّف الإسلام مع الزمن الجديد، على حساب التنازل أو التفريط بشيء من تلك المفاهيم، في أصول الدين أو فروعه.

استنهاض القيم الإسلامية في مواجهة العولمة:

إنّ الحركات الإسلامية على اختلاف اتّجاهاتها الإصلاحية لن تنجح في مجابهة «**العولمة الكاسرة**» إلا أن تعيد النظر في نزعاتها السلطوية، وصياغة مشروعها في سياق فلسفة الإسلام الأخلاقية الناظمة لعقيدته وشريعته.

(١) المائدة: ٤٨.

ولن يتيسّر لنا مقاربة الأفق «**العالمي**» للإسلام من دون اجتلاء نظام القيم في رسالته السمحة، وفي هذا يكمن المعنى الحضاري لعالم إسلامي لا يختصر قرآنه في حدود إسلام المذهب، أو إسلام السلطة.

وما بين اختصار القرآن بهذا النزوع نحو تبسيط السياسة، أو اختصاره بنزوعات التجريد الغيبي، الذي يقطع أسباب الغيب عن أواصر الشهادة، ثمّة وسطية يلفتنا إليها الجوهر القرآني في معادلات آياته الجارية منحى التمحور حول معنى الهداية إلى قيم التوحيد والأخلاق.

لقد التبس الجدال في القرن الماضي بين الإسلاميين أنفسهم حول مهمات الداعية، فرفع البعض شعار أسلمة العصر، ورفع البعض الآخر شعارهم عن عصرنة الإسلام، من دون أن نعالج مسألة استكشاف «**القيم الإسلامية**» وأبعادها الإنسانية في تشكيل الحضارة ومستقبلها.

وفي مدى طغيان مفهوم «**المذهب**» على مفهوم الأمّة ابتعد المسلمون عن أسماء الله الحسنى، فخسروا نقاط الارتكاز المضيئة في قيمهم، وبين أهمّ ما في هذه الخسارة أن يخسروا تجلّيات التوحيد في قيم الوحدة المحسومة بقيم التنوّع والتعارف.

ولنا أن نحلّل القيم الإسلامية في سياقها الأخلاقي والاجتماعي؛ لنواجه بها افتراس العولمة، لا لنظام القيم فحسب، وإنّما للإنسان نفسه في صميم وجوده ومعناه وآماله في وحدة حضارية لا تتخذ الدين لهواً أو خنجراً من خناجر التناقض والقطيعة.

جدلية العلاقة بين القيم والعقيدة:

إذا كانت القيم مبادئ ما نؤمن به ونعتقده؛ فلنستمسك بعروته الوثقى: ﴿... فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[1]؛ لأنّها بهذا الاعتبار مصدر توجيه سلوكنا نحو

(١) البقرة: ٢٥٦.

الاستقامة، ونحو التي هي أقوم بحسب القرآن نفسه: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾[1].

وفي ضوء ذلك تتماهى «**وسائل القيم**» في حياتنا مع أهدافها، فإذا هي المعيار الذي نفصل بميزانه وجه الخطأ من وجه الصواب، فيما نستوحيه من الكلم الرباني عن «**وضع الميزان**»: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ﴾[2].

ومثال ذلك أن نستوحي من قيمة «**العقيدة**» بالتوحيد تجلّيات طموحنا إلى قيم المساواة بين البشر، وأن نستوحي من قيمة إيماننا باليوم الآخر طموحنا إلى قيم العدالة.

كذلك تتّسع مفهومات «**القيم في الإسلام**»؛ لتغدو رموزاً لنظام كامل من القيم التي نؤسّس من خلالها لفلسفتنا القرآنية عن التقدّم والتخلّف، فلا قيم حضارية في دنيا المسلم لا تستبطن قيمه الروحية التي تجدّد عمرانه على ميثاق الأمانة، وعهود الاستخلاف الرباني على الأرض بكامل تطلّعاتها إلى الجمال والكمال.

مرجعية القرآن لا مرجعية المذاهب والطوائف:

يبدو أنّ الملابسات السياسية لنشوء الفرق الإسلامية ومذاهبها قد تركت وراءها فجوات من القطيعة التي حجبت معها صورة نظامنا القيمي، ولا سيما في المجال الحيوي، من قيم الاجتماع الديني وأخلاقياته فيما يظهر من نزعات بعض المدارس الفقهية إلى تأويل القيم الإسلامية وتفسيرها تفسيراً طائفياً أو مذهبياً، وهذا ما نراه في اختزال مصطلح «**الإيمان**» القرآني على هذه الفرقة أو تلك من مذاهب المسلمين، ما يعني ضرورة البحث في أثر

(١) الإسراء: ٩.
(٢) الرحمن: ٧-٩.

العصبيات الدينية وصنمياتها على النظام القيمي في الإسلام.

وإذا كانت «**ثقافة القيم**» المتّصلة بعقيدة الجبر والتفويض قد تركت تأثيرها الواضح في الركون إلى الظلم والظالمين، فإنّ ثقافة القيم المتّصلة بعصبياتنا المذهبية لا تزال تفتك بوحدة الأمّة؛ بمضخّات الفتن العمياء.

صحيح أنّ رسالة المسجد في أدبيات المسلمين هي محراب التوحيد وموئل الوحدة، غير أنّ خطأ تصنيف المساجد على أساس مذهبي قد أفرغ المسجد من الجانب القيمي المتّصل بتلك الرسالة.

ومن مفارقات قيم الخمس والزكاة في اعتمادات إنفاقها أنّها لا تستوعب القيم القرآنية التي تحدّثت عن أوصاف المستحقّين: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[1]، ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[2]، حيث تجري التقاليد تحت غطاء فقهي، على تجاهل المستحقّ بجريرة انتمائه المذهبي، وكأنّ الاستسلام لقيم العرف المذهبي والاجتماعي يكبّل القيم القرآنية بذهنيات إغلاق النصّ القرآني على هذه الطائفة أو تلك من مذاهب المسلمين.

منطلقات صياغة النظام القيمي:

من هنا يجب أن نلتمس عنوان التناسق الداخلي في بنيان الأمّة وضميرها، في همّ رد الاعتبار «**للمعرفة الجوهرية بنظام القيم**» في حياتنا..؛ انطلاقاً من دراستنا عن إشكالات تفريغ القيم الإسلامية من

(١) الأنفال: ٤١.
(٢) التوبة: ٦٠.

مضامينها، في مدى ما نشهده من استبدال قيم العقيدة بالمغالاة، وقيم العبادة بالطقوس، وقيم الأخلاق بالتقاليد.

وما يهمنا من إبداء هذه الملاحظات الحرجة حول طريقة فهم المسلمين لإسلامهم أن نوضّح أهمّيّة الدعوة إلى نقد السلوك الإسلامي؛ استناداً إلى مرجعية القرآن ونظامه القيمي؛ لنقارن في هديه بين القيم المطلقة والقيم النسبية، والقيم المجافية لروح الإسلام، وذلك لتخليص العقل الإسلامي من شوائب الصراع من أجل القيم داخل البيت الإسلامي الواحد، وقد انطفأ منه سراج المعنى الحضاري من وحدة القيم.